القراميد الخزفية لمحراب جامع القيروان المصنوعة في مدينة سامراء

أ. د. رفاه جاسم السامرائي

جامعة بغداد – كلية الآداب

الملخص

أسهمت الآثار العربية الاسلامية الباقية في المدن العربية الاسلامية في قيام الدراسات الحديثة التي أسهمت في ابراز الدور الريادي للعرب المسلمين في انجازاتهم الفنية والتي منها استطعنا الوقوف على حقائق كثيرة تتعلق بالآثار ودور المدن العربية الاسلامية في ظهور نتاجات فنية اصبحت هوية لهذه المدن في جانب العمارة والفنون العربية الاسلامية.

وتضم المدن العربية الاسلامية العديد من العمائر الشاخصة والاثار المنقولة ومن أبرز وأندر النتاجات الفنية القراميد الخزفية التي تغطي محراب المسجد الجامع في مدينة القيروان والذي يكشف بجلاء عن الازدهار الفني لمدينة سامراء عندما كانت عاصمة للخلافة العباسية للمدة من ٢٢١ – ٢٧٩ هـ والتي ازدهرت فيها صناعة الخزف بالبريق المعدني والذي يعدّ ارقى انواع الخزف الذي ازدهر بالمدينة وصنع منه العديد من القطع التي توزعت في المتاحف العالمية ومنها: القراميد الخزفية في محراب المسجد الجامع في مدينة القيروان والتي لا تزال ماثلة الى الآن.

Ceramic tiles for the mihrab of the Mosque of Kairouan, made in Samarra

Prof. Dr. Rafah Jasim Al Sammarae
University of Baghdad- College of Arts

Summary

The remaining Islamic Arab artifacts in Arab Islamic cities have contributed to modern studies that highlight the leading role of Arab Muslims in their artistic achievements. Through these artifacts, we have been able to uncover many facts related to the significance and role of Arab Islamic cities in the emergence of artistic creations that have become the identity of these cities in terms of architecture and Islamic Arab arts.

Arab Islamic cities house numerous significant buildings and movable artifacts. One of the most remarkable and rare artistic creations is the ceramic tiles that cover the mihrab of the Great Mosque in the city of Kairouan. They vividly reveal the artistic flourishing of the city, especially during its time as the capital of the Abbasid Caliphate from 221 to 279 AH. This period witnessed the flourishing of the metallic-glazed

ceramics industry, which produced some of the finest ceramics found in the city. Many of these ceramic pieces have been distributed to international museums, including the ceramic tiles in the mihrab of the Great Mosque in the city of Kairouan, which are still preserved to this day.

المقدمة

تنوعت الاثار العربية الاسلامية ما بين آثار شاخصة وآثار منقولة أسهمت في إثراء الدراسات العربية الاسلامية بما حملته من سمات وطرز فنية اعطت للحضارة العربية الاسلامية طابعها المنماز، إن ما تبقى من آثار في عواصم الدولة العربية الاسلامية ساعدت الباحثين في الوصول الى الانجازات الحضارية التي قامت على ايدي الصناع العرب المسلمين ونتج عنها طرز فنية اتسم كل طراز بأسلوب معين في العمارة والفنون، إن المدن التي كانت عواصم للدول على ارض الوطن العربي احتضنت اراضيها عشرات المواقع الاثرية ومنها مدينة سامراء الحاضرة الثانية للخلافة العباسية، إذ ظهر فيها طراز منماز تمثل بعمارة المدنية وآثارها في الفنون التطبيقية ومنها الخزف ذو البريق المعدني الذي صنعت منه القراميد الخزفية التي تغطي واجهة محراب المسجد الجامع في مدينة القيروان .

وتعدّ صناعة الخزف ذي البريق المعدني من الصناعات التي ازدهرت في مدينة سامراء فهي تظهر مدى تطور هذه الصناعة على ايدي الخزافين في مدينة سامراء . ولاتزال إلى اليوم البلاطات الخزفية ماثلة في المسجد الجامع في مدينة القيروان .

القراميد الخزفية لمحراب جامع القيروان المصنوعة في مدينة سامراء

كانت مدينة سامراء الحاضرة الثانية للخلافة العباسية سكنها ثمانية من الخلفاء العباسيين، أولهم الخليفة المعتصم بالله ٢٢١هـ– وآخرهم الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩هـ[١].

ودامت الخلافة في المدينة قرابة نصف قرن ونيف.

وعلى الرغم من قصر المدة الزمنية التي شغلتها كعاصمة، إلا أن للمدينة موروثًا حضاريًا تمثل بالآثار الباقية الشاخصة وغير الشاخصة. فمن الآثار الماثلة إلى اليوم المسجد الجامع ومئذنته (الملوية) تلك المئذنة الفريدة بين مآذن العالم الاسلامي. فضلًا عن بقايا الآثار المتمثلة بباب العامة وقصر المعشوق وقصر البركة وقصر الحوبصلات. أما الآثار التي كشفتها نتائج التنقيبات التي جرت في المدينة في السنوات المنصرمة، والتي أظهرت النتائج الفنية للمدينة

والمتمثلة بالفنون التطبيقية مثل: الفخار، والخزف، والزجاج، والزخارف الجصية، والأخشاب والرسوم الجدارية.

إن الأهمية التاريخية لمدينة سامراء تتمثل بكونها أكبر مدينة أثرية من حيث المساحة، فضلًا عن أنها المسجد الجامع الذي يعدّ أكبر مساجد العالم الاسلامي مساحة، إذ تبلغ مساحته ما يقارب الـ ٣٨٠٠٠ م٢[٢] ولا تزال جدران الجامع الخارجية ومحرابه ماثلة إلى اليوم.

إن العمق التاريخي لها دعا المستشرقين في البحث عن آثار المدينة، وكان في مقدمتهم هيرتسفلد وزرة.

وبدأ التنقيب في المدينة بمطلع القرن العشرين، وذلك في سنة ١٩١١– ١٩١٣م، إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م[٣] أدى الى تأخر التنقيب في المدينة فضلًا عن عدم نقل الآثار المستخرجة من أعمال التنقيب للبعثة الآثارية.

إن ما كشفته نتائج التنقيب في المدينة كان له اكبر الأثر على آثار المدينة ونتاجها الفني في مجال الفنون التطبيقية، وذلك بما قام به هيرتسفلد وزره من إصدار ٤ مجلدات تضمنت دراسة آثار المدينة التي شملتها التنقيبات[٤]. إن هذه المؤلفات ساعدت الباحثين المحدثين بدراسة آثار المدينة وتحديد ملامحها الفنية، والخروج بنتيجة تتمثل بأن للمدينة طرازًا دوليًا منمازًا في العمارة والفنون، وبهذه الدراسات المقارنة استطاعوا الوصول إلى هذه الحقيقة.

ومن النتاجات الفنية المنمازة في المدينة، الخزف ذو البريق الذي يعدّ أرقى الأنواع شكلًا وأدقها صناعةً وأغلاها ثمنًا. فيضم المتحف العراقي والمتاحف العالمية قطعًا من هذا النوع من الخزف. والبريق المعدني مصطلح حديث أطلقه المختصون العرب في مطلع القرن العشرين عند ترجمتهم كلمة (Lustre) والتي تعني التزجيج اللماع المعدني[٥].

وتوالت الدراسات حول التسمية من الباحثين العرب إلا أن التسمية الشائعة هو استعمال مصطلح الخزف ذي البريق المعدني وهو الغضار المذهب[٦].

أما فيما يخصّ الموطن الأول لصناعة الخزف ذي البريق، وذكر الباحثون العديد من المواطن بنظرياتهم التي ساقوها حول ذلك. وحدّد الباحث الألماني زره أن العراق ومدينة سامراء على وجه الخصوص كانت الموطن الأول لهذا الضرب من الخزف[٧]، إن القطع التي عثر عليها في المدينة هي الدليل على ازدهار هذه الصناعة، فضلًا عن الأفران التي كشفتها التنقيبات الأثرية كل هذه الدلائل تشير الى أن مدينة سامراء لها السبق في صناعة الخزف ذي البريق المعدني[٨].

إن العمليات الصناعية لهذا النوع من الخزف والتي تتمثل بمراحل صناعته بدءًا باختيار الطينة المستعملة في الصناعة وانتهاءً بدخوله الفرن.

وتتمثل مراحل الصناعة بالعديد من الخطوات التي تجعل من القطع المصنوعة من هذا الضرب من الخزف غالي الثمن وذي جمالية عالية(٩).

وصنعت من الخزف ذي البريق المعدني أوانٍ متنوعة ما بين صحون، سلطانيات، زهريات وخزف عماري. أو ما يُطلق عليه (القراميد).

ومما يجب التنويه له أن التسمية الخاطئة لهذا النوع هو القاشاني المنسوب خطًا الى مدينة قاشان(١٠).

إن ما عُثر عليه من قطع الخزف ذي البريق المعدني في بعض المدن الايرانية ومنها مدينة قاشان وغيرها من المدن الايرانية يعود أغلبها الى القرن الرابع للهجرة/ السادس للميلاد وهو في الغالب مستورد من العراق. ولم تتم له في أية مدينة من مدن بلاد فارس قبل القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد(١١).

ومما هو جدير بالذكر أن صناعة الخزف ذي البريق المعدني وصلت في بلاد فارس أوج ازدهارها في القرنين السابع والثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد(١٢).

وأفرزت الدراسات من تتبع المواطن التي ظهر فيها الخزف ذو البريق المعدني. أنّه تم التوصل الى رأي استطاع الباحثون تحديد الموطن الأول لصناعته وهو العراق وعلى وجه الخصوص مدينة سامراء، وهكذا اصبحت مدينة سامراء هي المنتجة لهذا النوع من الخزف بكل أنواعه.

إن الذي يهمنا من خزف مدينة سامراء هو الخزف العماري او ما يُطلق عليها القراميد الخزفية، التي تستعمل في العمائر وعلى وجه الخصوص المساجد. إذ نجدها تزين واجهة المحاربي في المساجد.

ومن مدن العالم العربي الاسلامي التي تضم مسجد الجامع هذا النوع من الخزف مدينة القيروان، التي تعد أحد قواعد الاسلام في شمال افريقية منذ تأسيسها على يد القائد عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ/ م.

وأصبحت هذه المدينة منذ تأسيسها منطلقًا للعرب المسلمين لتحرير شمال افريقية من السيطرة البيزنطية، وبعد اختيار موقع المدينة تم تحديد موضع المسجد الجامع ودار الإمارة ثم الوحدات الطبوغرافية الأخرى.

وكان مسجد القيروان نواة المدينة ومحور عناية الولاة ومن ثم الأمراء الذين تعاقبوا على حكم المدينة. إذ اصاب المسجد الكثير من التوسع. مع تقادم الزمن وصولًا الى بني الأغلب الذين حكموا شمال افريقية ضمن إمارتهم. واهتم الغالبة بالمسجد الجامع وحصلت له زيادات كثيرة حتى اكتمل تخطيطه وعماره واكتسب شكله النهائي(١٣).

ومن الزيادات المهمة للمسجد الجامع بالقيروان هي ما قام به زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب الذي بدأ بهدم أقسام كثيرة من المسجد في سنة ٢٢١هـ من دون تغيير في نظامه او تبديل في حدوده(١٤). وذكر أحد المؤرخين أن زيادة الله أراد هدم المحراب، فقيل له: إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه. فألح في هدمه؛ لئلا يكون في الجامع أثر لغيره، حتى قال له بعض البناة: أن ادخله بين حائطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك، فاستصوب ذلك وفعله، ولم يمسه بسوء وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض(١٥). ومحراب عقبة ما يزال يُرى اليوم بالكسوة الرخامية(١٦).

وأصبح محراب مسجد القيروان من المحاريب الفريدة؛ لاحتفاظه بالقراميد الخزفية التي جلبت من العراق وعلى وجه الخصوص مدينة سامراء الموطن الأول لصناعة الخزف ذي البريق المعدني. اما فيما يخصّ القراميد الخزفية للمحراب وعن وصولها لمدينة القيروان أنّه ورد في محفوظ (معالم الايمان في معرفة أهل القيروان) أن الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢-٢٤٩هـ/ ٨٥٦- ٨٦٣م) استورد في سنة ٢٤٨م البلاطات(١٧) ذات البريق المعدني من العراق، وتم جلب صانع بغدادي ليصنع له بعض آخر منها في القيروان نفسها(١٨).

ومما يجدر ذكره أن العراق وعلى وجه الخصوص مدينة سامراء كانت المدينة التي صنعت فيها تلك البلاطات، ولاسيما أن التاريخ الذي ورد ذكره في المخطوط يقع في منتصف عصر سامراء تقريبًا(١٩).

وتزين القراميد الخزفية واجهة المحراب مع المساحة المحيطة به والتي تبلغ أبعادها (٦,٥م) عرضًا و(١,٧٠م) ارتفاعًا، القراميد المستعملة في محراب المسجد الجامع في القيروان هي بيضاء مائلة للصفرة ويبلغ عددها ١٣٩ قرميدة كاملة مع ١٦ كسرة(٢٠).

وتم ترتيب القراميد التي تزيد عقد المحراب بشكل صفين متوازيين وضعت بشكل رأسي، اما باطن عقد المحراب فيضم القراميد التي رتبت الواحدة تلو الأخرى ويعلو جوفه المحراب افريز يضم مجموعة من القراميد التي تظهر بشكل غير نظامي(٢١).

إن القراميد المستعملة في جامع القيروان كلها ذات أبعاد واحدة(٢٢)، تم تصنيفها الى مجموعتين، المجموعة الاولى ذات لون واحد، أما الثانية فهي ذات ألوان متعددة(٢٣).

وتنماز قراميد المجموعة باستعمال الخطوط العريضة فقد كان محور الزخارف هو المعين والخطوط العريضة.

إن الأساس في الموضوعات الزخرفية التي تحملها القراميد هي العناصر الهندسية والنباتية.

ومن أمثلتنا على ذلك: قرميدة في الجهة اليمنى للناظر للمحراب، تحمل شكلًا معينًا على مهاد من الخطوط المتقاطعة التي شكلت مربعًا صغيرًا (لوح –٢)[٢٤].

وثمة مثال آخر لقرميدة من المجموعة: نجد الخطوط المتقاطعة شكلت معينات صغيرة تضم داخلها زخرفة قوامها زخرفة العيون وخطوط متعرجة (لوح – ٣)[٢٥].

ومما يجب التنويه له أن زخرفة العيون هي من الزخارف المعروفة في رسوم سامراء الجدارية[٢٦].

وثمة مجاميع اخرى من القراميد التي حملت شكلًا هندسيًا يمثل معينًا. ونجد في (لوح – ٤)[٢٧] معينًا مؤلفًا من خطوط عريضة شكلت معينًا يضم زخرفة قوامها اشكال عناصر نباتية وهندسية، فمن الأشكال النباتية هي الورقة الجناحية التي تضم داخلها ورقة كأسية ثلاثية الاتصال، قسم المعين على ٤ أقسام يضم كل قسمين متقابلين زخرفة متماثلة شكلًا (لوح – ٥)[٢٨]. ومن الأمثلة الأخرى: قرميدة تجمع ما بين الزخرفة النباتية والهندسية قام الفنان بتقسيم القرميدة على عدة أقسام بالخطوط العريضة، تتناظر هذه الأقسام من حيث الشكل إذ تقسمها الى مناطق زخرفية، يضم كل من الجانب الأيمن والأيسر افريزًا، اما القسم الأعلى والأسفل فقُسم الى افريزين تنتهي هذه الأقسام بشكل مربع في الزوايا، ويتوسط القرميدة شكل معين كبير. تنوعت الزخرفة في هذه القرميدة، ففي وسط المعين زخرفة نباتية قوامها غصن ينتهي بورقة رمحية داخلها زخرفة اشبه بالشكل البيضوي كأنّ الفنان حاول إظهار ما يحمله هذا الغصن، أما على جانبي الغصن الذي داخل المعين زخرفة نرى زخرفة نباتية أقرب ما تكون الى زخرفة العيون التي ظهرت في نتاجات سامراء الفنية. وتوزعت على أركان المعين نباتية مؤلفة من غصن ثلاثي الأوراق تحمل كل ورقة زخرفة، وتتماثل الزخرفة في الأركان، الى زخرفة الأفاريز الجانبية، إذ يحمل كل افريز غصنًا يضم مجموعة من الأوراق النباتية المتعددة الأشكال. اما أركان القرميدة ففي كل ركن شكل حلزوني تخرج منه تفريعات لغصن صغير (لوح – ٦)[٢٩].

ومن القراميد التي تحمل عناصر نباتية منها شكل ١١٠ (لوح –٦) التي تحمل أوراقًا جناحية يغطي سطحها خطوط أشبه بسعف النخيل وتنتهي الورقة الجناحية بورقة رمحية تضم غصنًا نباتيًا وعلى جانبي الورقة الجناحية ورقة ثلاثية النصوص تحمل زخرفة العيون.

وتنوعت الزخارف التي حملتها القراميد ما بين قراميد تحمل عناصر هندسية مع عناصر نباتية او زخرفة نباتية تنوعت أشكالها. وللوقوف على هذه العناصر نجدها مجسدة في مجموعة قراميد محراب المسجد الجامع في مدينة القيروان.

إن العناصر النباتية والهندسية التي ظهرت على هذه القراميد الخزفية، تعد من الأدلة المهمة التي يستطيع الباحث تحديد الموطن الذي صنعت فيه هذه القراميد.

الخاتمة:

وبمتابعة نتاجات مدينة سامراء نجد اغلب هذه العناصر أظهرت ما وصل من آثار المدنية التي كونت طرازًا دوليًا تأثرت به بعض الأقاليم التي وصلتها آثار مدينة سامراء. ومنها القراميد الخزفية التي استعرضنا بعضًا منها، وبمتابعة الأمثلة نميل الى تأييد الرأي القائل، إن القراميد مصنوعة في مدينة سامراء وتم نقلها الى مدينة القيروان. وتعدّ القراميد الماثلة إلى اليوم في جامع القيروان دليلًا على ازدهار الصناعات في المدينة ومنها الخزف ذو البريق المعدني الذي تنوعت نماذج منه في المتحف الوطني العراقي ومتاحف العالم الأخرى.

المصادر والهوامش

References

١- السامرائي، رفاه جاسم، مدرسة سامراء في التصوير العربي الاسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص٧.

٢- السامرائي، مدرسة سامراء، ص١٦.

٣- المالكي، فوزية مهدي جلاب، الخزف العراقي ذو البريق المعدني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، ص٧.

٤- مرزوق، محمد عبد العزيز، العراق مهد الفن الاسلامي، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٧١، ص٦.

٥- المالكي، الخزف العراقي، ص٢٨ و ٤٨.

٦- البريق المعدني، مصطلح حديث اطلقه العرب المسلمين في مطلع العشرين عن ترجمتهم لمصطلح Lustre والتي تعني: التزجيج اللماعي، المالكي، الخزف العراقي، ص٧.

٧- المالكي، الخزف العراقي، ص٤٥- ٥٥.

٨- قاشان: من مدن بلاد فارس تقع بين الري وهمذان، دمرت على يد المغول سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٢٠، الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥- ١٩٥٧م، مج ٣/ ص١٧٩.

٩- المالكي، فخار العراق، ص٣٤.

١٠- المالكي، فخار العراق، ص٣٤.

١١- المالكي، فخار العراق، ص٣٤.

١٢- عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري، من كبار القادة في صدر الاسلام ولد في حياة النبي محمد (صلى الله علهي واله وسلم) ولا صحبة له، شهد فتح مصر ولاة معاوية بن ابي سفيان افريقية سنة ٥٠هـ مصّر فيها المدينة، ثم عزل عن الولاية سنة ٥٥هـ/ ٧٧٥م ورد اليها سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م، أيام يزيد بن معاوية، استشهد سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م، الزركلي، خير الدين، الاعلام، الطبعة الثالثة، ج٥، ص٣٧-٣٨.

١٣- العميد، طاهر مظفر، اثار المغرب والأندلس، بغداد، ١٩٨٩، ص٦٧.

١٤- فكري، احمد، مسجد القيروان، مصر، ١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م، ص١٣ و ١٤.

١٥- .....، مساجد القاهرة ومدارسها، الاسكندرية، ١٩٦، ص٢٠٥.

١٦- الدباغ، عبد الرحمن محمد الانصاري، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، القاهرة، ١٩٦٨، ج٢، ص١٤٧.

١٧- الدباغ، معالم الايمان، علي، فاروق محمد علي، القراميد العمارية في العراق الى نهاية القرن السادس عشر، رسالة ماجستير فير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص١.

١٨- الدباغ، معالم الايمان، ج٢، ص١٤٧، علي، القراميد العمارية، ص٥٢.

١٩- علي، القراميد العمارية، ص٥٢.

٢٠- علي، القراميد العمارية، ص٣٦.

٢١- contact@zahrkammonun.com

٢٢- علي، القراميد العمارية، ص٣٦.

٢٣- الصورة من البث، محراب القيروان.

٢٤- علي، شكل ٣٠.

٢٥- علي، شكل ٢٨.

٢٦- السامرائي، مدرسة سامراء، لوح ٥٢.

٢٧- علي، القراميد العمارية، شكل ٣٨.

٢٨- علي، القراميد العمارية، شكل ٥٥.

٢٩- علي، القراميد العمارية، شكل ١١٠.

الالواح

لوح رقم (١)

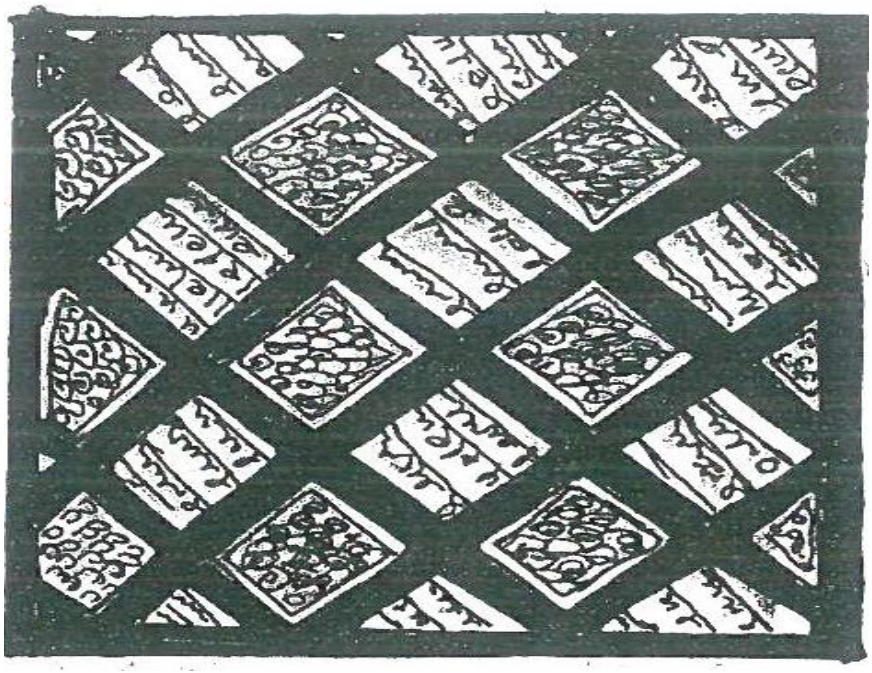

لوح رقم (٢)

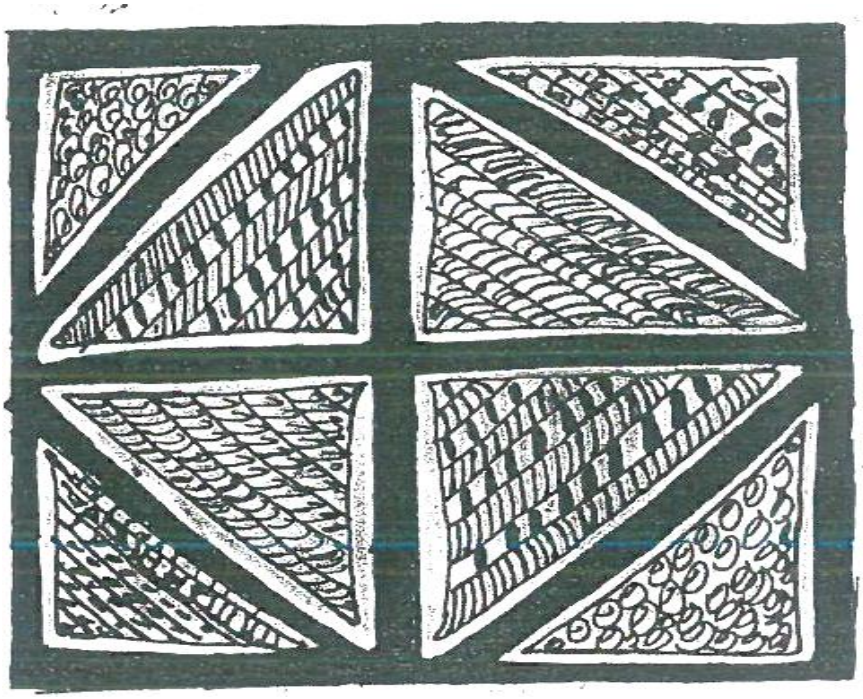

لوح رقم (٣)